الفلسفة

والانتخاب الطبيعي

هذا جزء من فصل من كتاب « الالوهية والتفكر » تأليف آرثر جيمس إرل أوف بلفور ، الذي ترجمه محرر هذه المجلة وهو الآن تحت الطبع .

- Theism and Thought, Arthur James, Earl of Balfour.

كانت نظرية الانتخاب الطبيعي من الانتصارات العظمى في القرن التاسع عشر. وبالرغم من حقيقة انه في ضوء البحوث التي تلت ذيوعها ، لم تظهر انها قادرة على تحقيق كل ما توقعنا منها، فان ذلك لا يزلزل مكانتها باعتبارها نقطة تحوّل في التفكير العلمي .

الى هنا وبالقدر الذي يهم من وجهة هذا المبحث ، نلحظ نقصاً مستباناً فيه ، بالرغم مما قد نقدره له من قيمة باعتباره اداة تطورية ذات أثر بيّن ، ظلت عاملة خلال دور زماني قصير نسبياً . نحن هنا نزن تلك الشبكة الهائلة التي تصل معتقدات العصر الحاضر ، أي معتقداتنا جميعاً ، بالمادة والطاقة في حالة توزعهما القديم الأولي — أي كما كانت في العصر السديمي قبل أن تتكوّن الاجرام السماوية . في فترة مجهولة لدينا، وبالحري فترة غير معروفة، وفي مدى ذلك التطور الكوني ، برز سيار هيّأ مجموعة من الخصائص والحالات التي يعرفها العلم في حالته الحاضرة ، وكان من طبيعتها أن تنطوي على الحاجات الضرورية اللازمة لنشأة صورة ما من صور الحياة العضوية. في الطور الذي قطعه ذلك السيّار مستكملاً العدة لنشأة الحياة ، لم يكن هنالك من محل الانتخاب ، وكذلك لم يكن للانتخاب من أثر في تهيئة المدرج التالي من مدارج التطور — وأعني به ذلك المدرج الذي شهد بدء الحياة ، وهو أعظم المدارج الانقلابية جميعاً . قبل وقوع ذلك الحادث الانقلابي ، لم يكن لنا من معرفة بما يضاف من جملة الاشياء أو يستخلص منها . ان عوالم لا عداد لها ولدت ثم بادت . ولكن أعظم ما وقع من نكبات وأحداث في عالم الاجرام ، لم يتجاوز حد انه توليف

مُماد فما كان موجوداً بالفعل . تتالت التغيرات وحدة إثر أخرى ، على مقاس من العظمة والفخامة قد يتصوَّر . غير أن عامة هذه التغيرات الفوزيقية ، لم تأت بجديد فيه صفة الاصالة والجوهرية . لم يكن في النتيجة من شيء ، تشكل بصورة أو بأخرى ، لم يسبق له وجود في العلة .والكون لم يأت بشيء جديد، اللهم إلا اعادة تنسيق قسمه. ولكن ببزوغ الحياة بدأت دورة جديدة . ومهما يكن من أمر ما اعتنق من فكرة ، فلست أدعي هنا ان الحياة ، حتى في أدنى مدارجها ، أكثر من توزيع ضروب خاصة من المادة صبّت في قوالب معينة ، وأن أفعالها وأركامها [1] جميعاً ، قد تفسر بمقتضى سنن الكيمياء والفوزيقا تفسيراً كاملاً . فعلى أي وجه تقلب هذا الرأي، فلا شكّ يساورنا مطلقاً في حقيقة الشعور والفكر والارادة . فان هذه الأشياء كانت دائماً زوائد على مجرد إعادة توليف المادة في صور مّا . وهي فوق ذلك أشياء ، بقدر ما لأرضنا هذه من صفة الحدوث الزماني جديدة — نعم جديدة وانها لباعثة على أشد العجب .

لم يكن للانتخاب الطبيعي من أثر في ابراز هذا المتجه الجديد . كما انه لم يكن له من يد في أن يحدث حدثاً يسير به قُدُماً عند ما بدأت الحياة بالوجود ، ولكن عند ما أصبحت تلابس عضويات من طراز ملائم . فعند ما وُجدت ، بطريقة غير مفهومة (أ) مُركّبات عضوية معقدة (ب) ليس لها صفة الحياة لا غير (ج) بل تكاثرت (د) وفي تكاثرها استحدثت أعقاباً لها ، على اطلاق القول . مباينة ، ولو أن هذه المباينة (هـ) صحبتها تغيرات (و) متوارثة : قبل أن تقع هذه الأحداث الجسام وتأتلف، لم يكن في مستطاع الانتخاب الطبيعي أن يعمل وأن يبرز تلك المستحدثات الاحيائية ، التي يحاول البحث العلمي اليوم ، بجهد بالغ ، أن يفصح عن أسرارها المعقدة .

***

من هنا يتضح أن تدخل الانتخاب الطبيعي في السّوق العلّي للأشياء تدخلاً من شأنه أن زوّد العقل الانساني ، حتى عما يشاكه أصلاً عقليًا ، قد بدأ مؤخراً في تاريخ

[1] Actions and Reactions

الكون . ولكن لدي شيء آخر أقوله . فإن تحيزه لا يبدأ بتحقيق هذا الغرض مؤخراً جداً لا غير ، بل انه ينتهي مبكراً جداً أيضاً . فإن أفعاله التأثيرية تموت وتفنى سريعاً ، حتى ليعجز عن الافصاح عما ينبغي الافصاح عنه ، وأعني بذلك الافصاح : عن مثاليات الحب والحسن (الجمال) والمعرفة .

بالنسبة لي تظهر هذه المسألة كأنها ثانوية القيمة ، فإن تلك الاشياء الباهرة العقلية ، اذا كانت في غاياتها ، هي من عمل اللاعقل ، فانه لا يعنيني إلاّ قليلاً اذا كان صدورها المباشر راجعاً إلى اللاعقل ملابساً صورة من الانتخاب الطبيعي محوّراً فيما يشبه القصد ، أو استترت في صورة مصادفة مكشوفة . ان النتيجة بقدر ما يعنيني واحدة ، ولكنّ هنالك من يقتبلون قبلة أخرى ، هم يطلبون تفسيراً علمياً . أعطهم هذا ، وهم بعد لا يُعْنَوْنَ عما يكون واقعاً بين العلة والنتيجة من التفكك وعدم الالتئام . ولقد تراهم قانعين راضين ، ما أثبتّ لهم ان خصائص أية محصّلة من المحصّلات التطورية ، تتضمن قيمة بقائية ، وتقتضى نظرتهم هذه تمحي كل القيم الاخرى ، ولا تساوي عندهم ذاتاً ولا محتوتاً . يكتفون بأن أسمى وأندر ما في الجمال والاخلاق والفكر ، أشياء لا تفعل للانسان ، إلاّ ما تفعل الوسائل الخسيسة لأقل كأن طفيلي حقير — بمعنى انها تساعد على الاغتذاء والتكاثر .

***

إن هؤلاء المفكرين لا يعوزهم الافراط في الطمع . ومع هذا فإني أشك في أن مراميهم ، على تواضعها ، قد تحققت في مثل هذه الدنيا التي نعيش فيها . انهم يخطئون اذ يفرضون ان هذه القيم العليا ذات أهمية في التناحر على البقاء . فالقديسون والفلاسفة والفنانون ، لم ينجحوا اطلاقاً ، على قدر علمي ، في أن ينشئوا أسراً كبيرة بأنفسهم . وكذلك هم لم يساعدوا الجمعيات التي فتنت بهم وأخرجتهم الحين بعد الحين ، من أن يبذّوا كثرةً ونماءً ، غيرهم من الجمعيات في بقاع أخر من الأرض . وتقتضى قياس الطبيعة للمنفعة ، هم لا فائدة منهم. انهم ليسوا من حيث ذلك ، أكثر من عاهات خبيثة في مجمل المحصّلة التطورية ، ولا يكونون جزءاً من نسيجها الجوهري . انهم ، بناء على فرضية المادية الطبيعية ، حَدَثٌ اتفاقي ، أنتجه حَدَثٌ مثله .

ليس في الناحية الروحانية للتطور من شيء هو أعجب من هذا . وربما لا يكون عجيباً ان هذه الحركة الاستدراجية التي مضت فيها هذه النشوءات، والتي أدّت الى النجاح الأحيائي، قد تذهب بها إلى آفاق تضحّي فيها كل كفاياتها البقائية أو جُلّها . ولكن العجب الحقيقي انه في هذه الآفاق ، أو في بعضها على الأقل ، قد تحرز قيماً أجود وأرفع ، بحيث تعجز المادية الطبيعية عن الافصاح عنها أو تقصر وجودها ببيان . فالديانات البدائية ، بما فيها من الخرافات والأوهام الفجّة . والحماقات والإفراطات ، قد يكون لها قيمة ، تلبس تلك الصورة التي يقرها الانتخاب الطبيعي . وربما تكون قد ساعدت الانسان ، بصور متفرقة ، مساعدة مباشرة في مدارج حضارته الأولى ، ان يحتفظ بعدده ، أو أن يكثر ويزداد . ولا شك مطلقاً في ان هذا يصدق أيضاً عن الخُلُقيّات البدائية ، وعلى العلم البدائي . وربما صدق أيضاً على الفن البدائي . لهذا نقول إن الاحيائيين[1] الذين يعالجون علم الاجيال[2] على أنه فرع من علم المواليد[3] ، محقون في اعتبار أن هذه الأشياء قد تعود بعض الشيء الى التناحر على البقاء . ولكن التناحر على البقاء ليس له تأثير مباشر على مدارجها النشوئية العليا . فأية قيمة بقائية مثلاً لحب الله كما نباشره في الممارسات الدينية العليا ؟ وأية فائدة تلك التي جناها انسان ما قبل التاريخ من ان كفاياته العقلية وتصوره ، تلك التي نلمح ان بداياتها الدّنيّة قد رُتّبت تدريباً في أسلافه بعوامل الحرب والجوع والمرض ، قد تتحوّر تنشأ منها تلك الكفايات ، التي هي بعد مرور آلاف من السنين ، سوف تيسر لأخلافه سبيل العمل والنجح ، في تتبع خطا معرفة هي الى التجريد الصرف ، والبعد عن الكسب المباشر ، وهي لأول وهلة معدومة القيمة ماديّاً ؟ وأي تأثير شامل ، من حيث الاحتفاظ بالنوع ، حدث بنشوء صفة الحب الخيالي الخالص من أدنيّات الشهوة الحيوانية ؟ واذا سلمنا بأن الانتخاب الطبيعي قد يكون له أثر في تنشئة العطف العائلي والطاعة القبليّة ، فلأي شيء تزدهر هذه الصفات فتصير رحمة برية قوية تشمل في دائرتها كل النوع الانساني ، وهي فوق ذلك ، تخص من يدعون غير الصالحين ، لا الاصلحين ، بعطف أكبر وحنان أعظم ؟

(١) Anthropologists (٢) Anthropology (٣) Natural History